يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ
بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم
بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

٥٥١

معانى الكلمات :

ببهتان : بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

يفترينه : يختلقنه .

لا تتولوا : لا تتخذوا أولياء .

كبر مقتا : عظم بغضا بالغ الغاية .

صفا : صافين أنفسهم أو مصفوفين .

بنيان مرصوص : متلاصق محكم لا فرجة فيه .

زاغوا : مالوا باختيارهم عن الحق .

أزاغ الله قلوبهم : حرمهم التوفيق لاتباع الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ، وشروط هذه البيعة .

٢ ـ أن نستشعر تمجيد الكون كله لله ـ تعالى ـ وكبر التناقض بين القول والفعل .

٣ ـ أن نعلم بعض المراحل التى مر بها منهج الله للبشرية حتى وصل إلى صورته الأخيرة ، وهى رسالة الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ .

المحتوى التربوى :

بيَّن الرسول الله ﷺ كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول فى الإسلام ، وعلى أى الأسس يبايعهن ، وهذه الأسس هى المقومات الكبرى للعقيدة ، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة ، إنها عدم الشرك بالله إطلاقا ، وعدم إتيان الحدود ، السرقة والزنا ، وعدم قتل الأولاد ، إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب وهن أمينات على ما فى بطونهن ، ولا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، والشرط الأخير يشمل الوعد بطاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمرهن به،وهو لا يأمر إلا بمعروف،

ولكن هذا الشرط ، هو أحد قواعد الدستور فى الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة مطلقة لولى الأمر فى كل أمر ، وهى القاعدة التى تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن ، واستغفر لهن الرسول ﷺ عما سلف ، والله يغفر ويرحم ويقيل العثرات .

وفى الختام يجيء الهتاف للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التى تميزهم عن سائر الأقوام ؛ إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله اليهود والمشركين وكل أعداء الله ، وكلهم غضب عليه الله ، وكلهم يائس من الآخرة ، لا يعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى أصحاب القبور لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

سورة الصف

يجيء التسبيح من الوجود كله لله العزيز الحكيم فى مطلع السورة التى تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة فى دين الله ، وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذى يوحد الله ، وينكر على الكافرين المشركين كفرهم وشركهم والذى يدعوهم للجهاد لنصرته ، وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فيوحى هذا المطلع أن الأمانة التى يقوم عليها المسلمون هى أمانة الوجود كله .

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديداً على أمر حدث من طائفة منهم ، أمر يكرهه الله أشد الكره ، ويمقته أكبر المقت ، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص ؛ لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان فضلا عن كماله ، إذ الإيمان الأصلى هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيم ، وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة ، فالآية تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث ، وتثنى باستنكار لهذا الفعل ، وهذا الخلق فى صيغة تضخم استنكار المقت الذى يكبر عند الله ، هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر المنكر ، وهذا غاية فى تفظيع الأمر ، وبخاصة فى ضمير المؤمن ، الذى ينادَى بإيمانه ، والذى يناديه ربه الذى آمن به ، والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه ما لم يفعلوا ، وهو الجهاد ، وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه ، فليس هو مجرد القتال ولكنه هو القتال فى سبيله، والقتال فى تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف ، والقتال فى ثبات وصمود .

يقول صاحب الظلال : « إن القرآن فى هذا الجزء كان يبنى أمة ، كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه فى الأرض ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس ، ولم يكن بد أن يبنى نفوسها أفراداً ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملا واقعا ، كلها فى آن واحد ، فالمسلم لا يبنى فرداً إلا فى جماعة ، ولا يتصور

الإسلام قائماً إلا فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعى منوط فى الوقت ذاته بكل فرد فيها هو إقامة هذا المنهج الإلهى فى الضمير وفى العمل مع إقامته فى الأرض، وهو لا يقوم فى الأرض إلا فى مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج فى حدود ذلك المنهج الإلهى ... إن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ، فلابد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا ، صفا سويا منتظما ، ذلك أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة وأن ينشىء مجتمعًا متماسكًا متناسقا ، فصورة الفرد المنعزل الذى يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته فى حالة الجهاد ، وفى حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهى ومراحلها فى الرسالات قبل الإسلام ، وإيذاء بنى إسرائيل لموسى وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ـ إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق ، فيذكرّهم موسى لم توصلوا إلىّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك تعظيمى وإطاعتى ؛ لأن من عرف الله وعظمته ، عظم رسوله لأن تعظيمه فى تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : « وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ... وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له صلوات الله عليه أذى » .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة ، وهم كانوا يعلمون أنه رسول الله عن يقين وإنما هى لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغا ، وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى ، وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً ، فالله لا يهدى القوم الفاسقين ، وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال ، وخرجوا عن الطاعة ومنهاج الحق ، وأصروا على الغواية ، كما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا طاعة لولى الأمر إلا فى المعروف الذى يتفق مع دين الله وشريعته .

٢ ـ المسلم لا يبنى فرداً إلا فى جماعة ، والبشرية لا تعيش أفراداً إنما تعيش جماعات وأمما .

٣ ـ ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ، وهى تواجه التكاليف الشاقة .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾
٥٥٢

معانى الكلمات :

مصدقا : معترفا .

افترى : ادعى .

ليظهره : ليعليه .

تنجيكم : تنقذكم .

مساكن طيبة : قصورًا عظيمة .

الحواريون : أول من آمن بعيسى عليه السلام .

أيدنا : قوينا .

ظاهرين : غالبين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف بنى إسرائيل من بشارة عيسى عليه السلام .

٢ ـ أن نستشعر دين الله فى ظهور دائم واستعلاء كامل .

٣ ـ أن نعلم طريق الهدى الموصل إلى النجاة من عذاب الله .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق قول عيسى ابن مريم عليه السلام لبنى إسرائيل ، فلم يقل لهم إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله ، وإنما هو رسول الله ، والتوراة قد بشرت به ، وهو مصدق ما أخبرت عنه ، وهو مبشر بمن بعده ، وهذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة ، وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه ، فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى .

فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد فى ضوء تلك التجارب وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته ، وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى فى الجزيرة العربية ، وفيه أنه النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة التى كانوا يتواصون بتكتمها .

ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد ، وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم ، حاربوه بالاتهام لما ظهر أمره وجاء بالبينات قالوا:هذا سحر مبين،كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد ، وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامى للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار ، وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة ، وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع فى غزوة الأحزاب ، وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى فى حديث الإفك، وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها فى الحديث وفى السيرة وفى التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب فى القرآن الكريم ، ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة .

وقد صنعوا ـ ويصنعون ـ البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين ؛ ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ، وراية غير راية الدين ، وهذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة ، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ، فهى حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم إنه سحر مبين ، ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد ، وهى صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل ، ونور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد فى أيدى العبيد ، وإن خيل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد ، لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه الهدى ودين الحق هى الشهادة ، وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة ، ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله ، ظهر فى ذاته كدين ، فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته ، وقد صدق وعد الله مرة ، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله ، فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض ثم زحف زحفا سلميًا حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى ، وما تزال لهذا الدين أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها . ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله ، الذى لا تقف له جهود العبيد المهازيل .

وفى ظلال قصة العقيدة ، وفى مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا ، من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين ، يهتف بهم إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، ومن ذا الذى لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور ، وهى : إيمان يقينى لا يشوبه أدنى شك ،و جهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، وهذا خير من تجارة الدنيا لو كان هناك علم ، وإن فعل المؤمنون ما أمروا به ، غفرت لهم الزلات ، وأدخلوا الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات فى نعيم مقيم ، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة .

والله سبحانه يعلم أن النفس تضعف وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضا بالواقع الهابط ، ومن ثم يجاهد القرآن النفس هذا الجهاد ، ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ، ذلك الهتاف المتكرر المتنوع فى شتى المناسبات ، ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان ، فها هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعا جديداً ، وموجبا جديداً ، فيأمر عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام والحواريون هم تلاميذ المسيح عليه السلام ، وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

وفى هذا الموضع الكريم الذى يرفعكم إليه الله ، وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم ، فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم ، وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير ، فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ، وماذا كانت العاقبة ؟

ولما بلغ عيسى عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا بنوته ، ونصر الذين آمنوا على من عاداهم من فرق النصارى ومعنى«أصبحوا ظاهرين» أى بالحجة والبرهان، أو أن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً:

١ ـ الكافرون والمشركون فى كل زمان ومكان يحاربون دين الله الحق ، ويسعون لإطفاء نوره ، ولكن الله لن يمكنهم من ذلك .

٢ ـ التجارة الرابحة هى التى تكون مع الله ـ تعالى ـ لأن مكسبها عظيم ومضمون بضمان الله الذى يملك كل شىء.

٣ ـ استنهاض همة المؤمنين لنصرة الله ونصرة دينه .